حرية التفكير في الشرق

[كتبت لجريدة « الجامعة الاسلامية » كبرى صحف فلسطين]

ومهداة الى شباب العرب

حينا وفد على رسول « الجامعة الاسلامية » الغراء ، الزميل الفاضل الأستاذ محي الدين رضا ، يسألني في نبل وأدب ، أن أكتب له — في الحال — فصلا عن تاريخ الفلسفة الاسلامية ، أو الفرق الصوفية وتطوراتها ؛ أو في ما يزعم أو يظن أني مختص فيه، واقف نفسي على دراسته ؛ لم يكن من أمري — وأنا الذي يقدر هذا الظرف الصحفي الدقيق — إلا أن أضحك ملء في ؛ لهذا المطلب العسير ، يطلب في مثل تلك السرعة ؛ وفي أدق ساعات عملي الصحفي ضيقاً وحرجاً أيضاً ؛ لكنني لم أعدم مخرجاً من هذا المأزق الذي لا يجدي فيه الاعتذار ، فانقلبت سائلا بعد أن كنت مسئولا ، وطالباً بعد إذ كنت مطلوباً ، فقلت : وهل ترى الكاتب يستطيع أن يكون حراً ، آمن النفس ، مطمئن البال إلى ما يريد أن يكتب ، صادقاً في تأدية ما يطلب إليه من حق ودين ، حيال مخالفيه في الرأي أو مناهضيه في الفكرة ؟

أحسب أن الكاتب في الشرق عامة ، وفي الشرق العربي خاصة ، ما يزال يرسف في أغلال من عبودية الفكر ، ويخطو في قيود من حديد الأوضاع والتقاليد ، بل ما يزال أبعد كتاب العالم أجمع ، عن التمتع بهذه الميزة السامية ، وتملك هذا الحق المكتسب بالنسبة للشرق بما في طبيعته الشرقية الروحانية من نزوع الى الحق والخير والجمال .

وما أنذا أسمعك تبدد وهمي هذا بما تظنه من حق ؛ فتزعم أن علة ذلك راجعة إلى استعمار الغرب للشرق فحسب ؛ وأنه يوم يبيد الاستعمار تعود إلى العقول حريتها وطمأنينتها ، وأنا إذا كنت لا أنكر ما لهذه الحجة من قيمة ، إلا أني لا أظنها وحدها كافية لتعليل ما يرسف فيه من استعباد وتأخر وجمود ، لأن بعض دويلات أوروبا — في القديم والحديث — لم يمنعها احتلال دول أخرى لها ، من الحرية الفكرية التي كانت سبباً — وأي سبب — في زوال الاحتلال ؛ ولماذا نذهب بعيداً وهاهي ذي « تركيا الحديثة » يصح اتخاذها دليلا على ما قدمت وإن كنا نخالفها نحن العرب الخلص في كثير مما انتهت إليه حالها الراهنة ؟

ولنقصر بحثنا الآن على الشرق العربي وهو ما اصطلح على أنه منبت الاسلام ومنبعه ، فاذا صح هذا الذي يزعمون — وهو صحيح لا يحتمل جدلا ولا مناقشة — صح لنا أن نتساءل : أي شطري العالم أحق بحرية الرأي والتفكير ؟

أهو الشرق أم الغرب؟

أما أنا فأزعم أن الشرق أحق بهذه الدعوى وأجدر، لأنها منه نبتت، وفي ظل دينه السائد فيه عاشت ونمت. بينما كان الغرب يعيش في ظلام دامس، وفي ظل من التفكير ثقيل، فلم يكن يسمح لانسان أيا كانت صفته، أن يضمر، فضلا عن أن يعلن، رأيا يخالف المجتمع، أو يباين العصر الذي يعيش فيه. وقد كانت كلمة «الهرطقة» وهي «الكفر» تخرج من فم رجل الكنيسة، كافية لزج الملايين بله الآلاف في أعماق السجون، إن لم تودي بأرواح الكثيرين. فكم من دماء أهرقت، وأرواح أزهقت، وأعراض انتهكت، وجرائم ارتكبت، باسم الدين تارة، وباسم الدفاع عن الدين تارة أخرى!

في هذه العصور المظلمة التي كان يحدث فيها ذلك الاضطهاد لأسمى ما في الوجود من كائنات، جاء الاسلام باسطاً سلطان العقل بأوسع معانيه، داعياً إلى دين الله بالحجة والمنطق، مطالباً بالبرهان والدليل، حاثاً على تقديس الحرية الفكرية، والأخذ بالعقل إذا ما تعارض العقل والنقل؛ فكان ذلك أول دين سماوي نادى بتخليص العقل البشري من القيود والأغلال، وكان من خير هذا المبدأ الحق الجديد، أن هزم المسلمون — وكانوا قلة في العدد والعدة — دولتي الرومان والفرس، وقد كانا يقتسمان العالم كله اقتساماً، ويحكمانه بالسيف والمدفع، والباطل باسم الحق، والظلم باسم القانون، والوثنية باسم الدين، ويخضعانه لطائفتين اثنتين لا ثالث لهما: رجال الدين، ورجال الحكم أو الملك. وإذن فلم يكن عجباً أن يبلغ الاسلام في أقل من الثمانين عاماً، مالم يبلغه قياصرة الرومان، وملوك أنو شروان، في مئات من السنين.

أجل! إنه لم يكن عجباً أن نرى هذه الدولة الفتية، دولة الاسلام الناشئة، دولة العرب الساذجة، تطفر طفرة واحدة من قبائل رحل لا تؤلف دويلة صغيرة، لتتزعم العالم كله من شرقيه إلى غربيه، ولتبسط سلطانها على المشرقين، حتى صح لهارون الرشيد أن يقول — وقد أمطرت السماء —: امطري حيث شئت يأتني خراجك. فهل ترى التاريخ يعكس الآية فيصبح العرب أذلة صاغرين، بعد أن كانوا أعزة سائدين؟ وتصبح آية الرشيد آية الانكليز الآن: الذين لا تغرب الشمس عن إمبراطوريتهم كما يدعون؟

الحق أنا في محنة طال عليها العهد، حتى حبب إليها الركون إلى ربوعنا المباحة، والاستقرار في نفوسنا الملتاعة؛ وها نحن أولاء نتجرع الكأس حتى الثمالة، ونتجشأ الصاب والعلقم، فإلى متى يا شيبة العرب، وحتى متى يا معشر الشرقيين، وماذا أنتم فاعلون يا سلالة محمد بن عبد الله؟

لقد سئمنا الذل والهوان، وأتعبنا الاستعباد والاستعمار، فهل لم يئن الأوان بعد لتصحوا من هذا الرقاد؟ إن ذلك في مقدوركم أنتم، وفي أيديكم وحدكم، فاعملوا على حرية الفكر،

ونادوا باستقلال العقـل ، وأعيدوا إليه سلطانه، فهو والله قوام دينكم ، عليه قامت دعوته ، وبه استقمت زعامته، ومن قال بغير ذلك ممن يلبسون مسوح الوعاظ رياء، ويتشحون بوشاح الدين ظلماً، فهو غير مخلص فى ما يدعى ، إنما هو للدين عدو ، وبه متاجر مساوم ، وللمستعمر مبشر وعضد.

إن التاريخ فى مختلف مراحله ، لم يحدثنا عن عصر من عصور الاسلام الزاهية ، دون أن يقرنه بالعدل والمساواة والحرية، وينعته باحترام العقل ، والرجوع إلى المنطق ، والاعتماد على الفكر . ولنا فى ذلك أسوة برسول الله وصحابته وأئمة دينه وتابعيه ممن كانوا يبرأون إلى الله من كل عمل يخالف روح الاسلام السمح ، وشريعة التوحيد الخالصة من القيود والتعقيد .

* * *

وبعد فليكن الشرق شرقاً ، والغرب غرباً ، فسيعود الشرق قريباً إلى سابق أيامه الزاهية ، وماضى عصوره الذهبية، ليهديه إلى سبيل العلم الصحيح ، كما هداه من قبـل إلى الدين القويم؛ ووقتئذ ينتصر عليه نصرين: نصراً فى العلم ونصراً فى الدين .ووقتئذ أيضاً نعرف مقدار الحق فى قول « جون كريستوفر مارلو » أحد نقاد الانكليز فى القرن السادس عشر، الذى يقول :

« الشرق والغرب يتساويان فى الميزان الجغرافى ــ تمام المساواة ــ الشمال والجنوب . تخالف تقاليد الشرق تقاليد الغرب ،كما تخالف أجواء الشرق أجواء الغرب ؛ وفى اختـلاف الأجواء اختلاف للبيئة ، وفى اختلاف البيئة اختلاف الذوق ؛ وفى اختلاف الذوق اختلاف التقدير ؛ ومن هنا يختلف التقدير والنظر إلى لباب الأشياء ، لأن الهادى إلى ذلك إنما هو الذوق والاحساس بالجمال قبل كل شىء . وفى اعتقادى أن ذلك الذى ينادى بفكرة العالمية مشعوذ أكثر منه رسول تفكير »

وبعد ، فتلك خواطر سريعة، نرجو أن تكون باعثاً ــ لمن لديهم سعة من الوقت والتفكير ــ لبحث الموضوع من نواحيه العلمية والدينية والفلسفية المختلفـة ؛ ولعل مالنا من حق الزمالة على زميلنا العالم الجليل السيد الفاروقى، يشفع لنا فى هذه الكلمة السريعة ،التى أردنا بها الاجمال لا التفصيل والسلام ؟

الاسلامبولى

لا تنس
تسديد قيمـــــة الاشتراك

نرسل اليك ملحق المعرفة

الذى أشرنا اليه فى أول هذا العدد